الفصل التاسع عشر

تقييم العقد الاجتماعي

تأملات نقدية للقادة

طوني س. تشمبرز (Tony C. Chambers)

ركّز هذا الكتاب على سؤالين مركزيين: ما الذي يحتاجه المجتمع من التعليم العالي؟ وهل يستطيع التعليم العالي تقديم ذلك؟ وهذان السؤالان يقعان في مركز العلاقة الهشة بين الكليات والجامعات، والجماهير الأوسع التي تخدمها، وتعد جزءاً منها. لقد تناول كتاب مختلفون من هذا الكتاب هذين السؤالين، وقدموا اقتراحات بشأن الإجابة عليهما. ففي الفصل الأول، اقترحت تشكيل شبكات عمل عديدة مزودة بالمعرفة والمعطيات من الأفراد والمجموعات حول مفهوم ناشئ للكيفية التي ينبغي أن تبدو عليها الديمقراطية المتنوعة، وللدور الذي يمكن أن يلعبه التعليم العالي لتحقيق تلك الرؤية. ردد كثير من المؤلفين صدى هذه الملاحظة في هذا الكتاب. ففي الفصل الثامن عشر أكدت كيزار أنه ما من حركة، أو حركة غير عادية (ما وراء الحركة) ينبغي أن تعرف العقد الاجتماعي وحدها، فالحوار مستمر، ولا بد من إجرائه بين مجموعات مختلفة ضمن المجتمع. وفي

www.obeikandl.com

هذا الفصل الختامي أدرس المعنى الكامن وراء الأسئلة المتعلقة بحاجات المجتمع ومقدرة التعليم العالي على مخاطبة تلك الحاجات. أقترح أن تتحول هذه الأسئلة، وتتغير مرات عديدة، وأن تستجيب للتغيرات التي تحصل في المجتمع، التي سيشار إلى بعضها في هذا الفصل. ومع ذلك لا بد من التمييز بين الاستجابة إلى التغيرات في المجتمع والبيئة، وبين الانقياد إلى فلسفة معينة كالليبرالية الجديدة التي تبشر بقوى السوق. فالاستجابة والتأمل المقترحان في هذا الفصل يتشكلان بفضل الحكمة الإنسانية التي تخص بعناية كل قوة في المجتمع لتعرف مدى تأثيرها. إنني أرى أن القبول الحالي لقوى السوق يُعد ردّ فعل تفاعلي غير مدرك للظروف. والأهم من ذلك؛ أشجع القادة على إعادة التفكير مليّاً وبصورة روتينية في دور التعليم العالي، ومسؤوليته في مخاطبة حاجات المجتمع كجزء من مهمتهم في إعداد الأهداف، والخطط وتحقيق الإنجازات الحياتية.

في العام 1993 ردت مجموعة وينغسبريد (Wingspread) للتعليم العالي، على سؤال: (ما الذي يحتاجه مجتمعنا من التعليم العالي؟) على النحو الآتي:

> **«يحتاج مجتمعنا أشكالاً مجتمعية أقوى وأكثر حيوية. ويحتاج إلى مواطنين مزوّدين بالعلم، ومنخرطين في خدمة المجتمع. يحتاج إلى خريجين قادرين على الاضطلاع بأدوار قيادية في الحياة الأمريكية. يحتاج إلى قوة عمل كفوءة وقابلة للتكييف. يحتاج تعليماً جامعياً عالي النوعية، ينتج خريجين قادرين على الاحتفاظ بكل هدف من هذه الأهداف. يحتاج إلى أبحاث من الدرجة الأولى؛ تدفع بحدود المعرفة الإنسانية المهمة توسيعاً كما يحتاج إلى تقليل البحوث المصممة لإطالة سيرة الحياة العملية الأكاديمية. يحتاج إلى مشروع تعليمي فعّال الكلفة، قابل للتطبيق، معطاء**

يقدم تعلماً مدى الحياة. وفوق ذلك كله، يحتاج التزاماً بالوعد الأمريكي: وهو فكرة أن يحظى الأمريكيون كلهم بفرص تنمية مواهبهم إلى الحد الأقصى».

(1993، ص2)

ويتابعون القول: «لا يلبي التعليم العالي هذه الضرورات». وفي العام 1999 ردد مستشار جامعة كاليفورنيا - بيركلي، روبرت بيردهال (Robert Berdhal) هموم مجموعة وينغسبريد في كلمة ألقاها في النادي الوطني للصحافة، مع مفهومه لما يحتاجه مجتمع ديمقراطي من التعليم العالي:

«إن شرعية ادعاء الجامعة الحكومية بأنها أداة للتقدم في مجتمع ديمقراطي، موضوعة في كفة ميزان، اعتماداً على مسألة التحصيل، وليس التحصيل فقط، بل نوعية التحصيل وهدفه. هل نحن نقدم أوسع مقطع ممكن لتحصيل الشعب الأمريكي لأفضل تعليم ممكن؟ هل نستبعد بأي وسيلة أي شخص له الحق في ألا يستبعد؟ هل نحن نخدم المجتمع بأبحاثنا، وبتعليم شعبنا الخدمة بوصفهم قادة ومواطنين؟ هل نحن - بذلك - نجيب على هذه الأسئلة كلها، ونلبي التزاماتنا العليا المفصلة بوضوح في عقدنا الاجتماعي كي نحقق الثقة العامة؟.

في حين أن بيردهال كان يتحدث عن الجامعة الحكومية، فإنه من الواضح أن الكليات والجامعات الخاصة مشمولة في السياق نفسه.

كثيرون ممن ينتسبون مباشرة للتعليم العالي، أو من أولئك الذين لهم صلة بعيدة -ولكنها دائمة- بالتعليم العالي يقولون إن التعليم العالي يقدم كل ما يريده الشعب ويحتاجه. فإذا كان ذلك صحيحاً، لماذا -إذاً- نتحدث باستمرار عن عدم

www.obeikandl.com

وجود رابطة بين التعليم العالي والدور الذي يلعبه في مخاطبة القضايا العامة الحرجة في مجتمع ديمقراطي؟ كيف تستطيع المؤسسات التعليمية مواءمة ممارساتها وقيمها مع حاجات المجتمعات المحلية والعالمية التي تعد جزءاً منها، مواءمة أفضل.

كيف تستطيع المجتمعات والجاليات المختلفة ضمن الكليات والجامعات، وحولها الانخراط في التغيّرات التحولية المتعلقة بالازدهار الاجتماعي المؤسساتي؟ ما الذي ينبغي أن يحدث لتراه الجماهير الأكثر تنوعاً، وتؤمن به، وتنفذه تجاه الكليات والجامعات بوصفها مصادر ملتزمة بالصالح العام؟ ما هي الالتزامات المجتمعية والمؤسساتية التي ينبغي أن تعد الطلبة للقيادة العامة والخاصة؟ كيف نوجد مؤسسات تعليمية تهيء الطلبة للتعامل مع تعقيدات المجتمع المتوسع بعد مغادرتهم حدود غرف الصف والجامعات؟ تكمن الإجابات على هذه الأسئلة في مكان ما، وسط الحوار الأوسع بين المجتمع والتعليم العالي. لا بد من بذل جهود إبداعية تعاونية ضمن الحركة الاجتماعية الجديدة، الهادفة إلى تعزيز العلاقة الجماهيرية العامة بين التعليم العالي والمجتمع، لفهم حاجات أولئك الشركاء في هذه العلاقة. تتطلب هذه الجهود من أجل فهم العلاقة أشكالاً مختلفة من التواصل والتفاعل، وافتراضات مختلفة بشأن السلطة، والامتياز، ومكان وجود المعرفة والمعلومات.

إن تفسير العبارة التي يستشهد بها دائماً وهي (Yogi Berra) هو: (ليس المستقبل كعهده من قبل). فالوقائع الحالية المتوقعة، التي تواجه المؤسسات الاجتماعية، لا يوازيها شيء في تاريخ هذه الأمة. إذ تبدو تحديات كثيرة كأنها مألوفة، إذا ما أخذت بصورة مستقلة، بيد أن احتشاد الظروف المعقدة أمر غير مسبوق في تجربتنا الديمقراطية. ولا التقدم في ميادين التقنية والعلوم والطب والعلوم الإنسانية والاتصالات عن بعد. والوعي الإنساني كان واعداً جداً، ومتيسراً لكثير من الناس. فاحتمال حصول تقدم غير معقول، واحتمال حدوث

دمار لا يتخيله أحد، كلاهما موجودان في حالة توتر متوازية لهذه الأجيال، والأجيال القادمة في أمتنا، وفي العالم أجمع. إن البيئة الاجتماعية والعالمية التي يعيش فيها التعليم العالي، تتغير تغيراً عنيفاً هائلاً مصحوباً باضطراب وآثار لا يتنبأ بها. فالتعليم العالي، بوصفه مؤسسة اجتماعية، يحمل مسؤولية إبقاء مهمته المركزية ملتصقة بقلبه أثناء قيامه بالخدمة النبيلة لحاجات هذا المجتمع المتغير بسرعة. والتحدي هنا هو الاحتفاظ بالقيم ذاتها، ولكن التصرف على أساسها بطرق مختلفة في هذا العالم المتغير جداً.

إن المطالب التي تواجه التعليم العالي - وهو يحاول خدمة مطالب الجمهور بمشهد اجتماعي متغير بسرعة هي في الغالب المطالب نفسها التي يواجهها المجتمع لدى محاولته تقوية ديمقراطيتنا المتنوعة، ويتضح أكثر فأكثر أن مشكلاتنا الاجتماعية التي يمكن تتبعها مثل المشكلة الإنسانية، ومشكلة الرعاية الصحية التي يمكن تقديمها، والتعليم العام الحضري في مرحلة K-12، والفقر المتصاعد، كلها معقدة، ونظامية، ومتشابكة. فضلاً عن أنه يتضح بمرارة وألم أنه لتلطيف المظاهر الحالية والمستقبلية لهذه المشكلات، فإن شبكات عمل من مختلف أنماط الناس والمؤسسات، تحتاج إلى مواجهة المشكلات بالإطار المعقد والنظامي والمتداخل نفسه، الذي يوحي بالمشكلات، ويطيل أمدها. وعبر فارتان غريغوريان (Vartan Gregorian) رئيس مؤسسة كارنيجي في نيويورك، والرئيس السابق في جامعة براون، عن هذه المسألة في مقالة حديثة له، على النحو الآتي:

«إننا ننزع بوصفنا مجتمعاً إلى تقديم مجرد كلام يضاف إلى تعقيدات المشكلات، ثم نتابع المقامرة على حلول ساذجة، مثل بناء سجون لحل مشكلة الجريمة والمخدرات. ولكن كما تقول بيلا هـ. بناتي (Bela H. Banathy) المختصة في نظريات الأنظمة: «إن مشكلة المواصلات والنقل الفنية، مثل بناء طريق حر، تصبح مشكلة استخدام أرض مرتبطة بالقضايا الاقتصادية والبيئية، والحياتية والسياسية. هل نستطيع حقّاً رسم حدود؟ فعندما يطلب منا تحسين وضع ما - خصوصاً إذا كان يتعلق بالجمهور- نجد أنفسنا أمام مجموعة من المشكلات،

وليس مشكلة واحدة. ... وما من مشكلة من هذه المشكلات يمكن حلها باستخدام أساليب خطية أو تتابعية». (2004، ص 12 B).

ليست المشكلات العامة من المشكلات ذات الميدان الاجتماعي الواحد، ولا توجد حلول فردية لمجموعة المشكلات المندمجة في كل مشكلة تم تحديدها. فهذه الوقائع والحقائق تؤثر في كل زاوية من زوايا المجتمع والعالم دون تمييز. وإذا لم نقبل هذه الوقائع ونعمل عليها، فإن التعليم العالي والمؤسسات الأخرى تجازف بتكرار الظروف ذاتها التي نسعى إلى تحسينها، أو ربما نجازف بزيادتها سوءاً.

وأخيراً -وفي نهاية المطاف- فإن الحركة التي تريد بناء مجتمع أكثر تقدماً وعدالة ورفاهاً وازدهاراً، لا بد وأن تكون حركة ذات صلة بالشعب وأفكاره ومخاوفه، ومقدرته على التخيل، والعمل معاً في اتجاه مستقبل مختلف (غرين، 1997، ص2). إن تصور من يعد جزءاً من البحث والحركة يزداد اتساعاً. ونتيجة لذلك، يسمح لرؤى جديدة للصالح العام أن تظهر. هل يمكننا تحقيق تعليم عالٍ لخدمة الصالح العام؟ هل ينبغي أن يكون هدفنا أوسع وأكثر إحاطة؟.

سوف يؤثر في معنى الصالح العام كل من الشراكات، والتعقيدات، والديمغرافيات المتغيرة، والابتكارات الاجتماعية، وشبكات العمل، والأنظمة، والمخاوف، وأنماط المعرفة، والمعلومات المتغيرة، وغيرها من الظروف الأخرى. أثناء الحوار وقبله لا نستطيع معرفة النتائج التي سوف يسفر عنها. ومن المحتمل أن يبدو العقد مختلفاً بناء على البيئات الاجتماعية المتغيرة. وكلنا أمل ألا تبعد البيئات الاجتماعية المتغيرة العقد عن جذوره التاريخية المهمة التي ثبتت أهميتها للمجتمع في الماضي، وستظل مهمة في المستقبل. إذاً، لا بد من وجود قيادة ورعاية عاقلة حريصة لتحقيق الحاضر القوي الهائل في العقد القائم بين التعليم العالي والمجتمع. ونأمل أن تجدوا في صفحات هذا الكتاب، العون اللازم للانخراط بنشاط في الحركة، لتقوية العقد بين التعليم العالي، والجماهير المتعددة التي تغذيه وتخدمه.

www.obeikandl.com

References

Berdahl, R. M. (1999). *The public university in the 21st century.* Address to the National Press Club. Washington, DC, June 2, 1999.

Green, M. (1997). *Transforming higher education.* Phoenix: American Council on Education and the Oryx Press.

Gregorian, V. (June 6, 2004). Colleges must reconstruct the unity of knowledge. *Chronicle of Higher Education, 50*(39), B12.

Wingspread Group on Higher Education. (1993). *An American imperative: Higher expectations for higher education.* Racine, WI: Johnson Foundation.

www.obeikandl.com